للأغيار ، فأنت تتوقع قدرتك على الفعل وعند إرادتك الفعل قد لا تتيسر لك مثل هذه القدرة .

ولماذا أنزل الحق هذا الكتاب ؟ . يأتى الحق هنا بالتمييز للأمة التى أراد لها أن ينزل فيها القرآن فيقول :

﴿ أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَـٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَـٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ ﴾

فالكتاب يصفى العقائد السابقة التى نزلت على الطائفتين من اليهود والنصارى ، وإذا كنتم قد غفلتم عن دراسة التوراة والإنجيل ؛ لأنكم أمة أمية لا تعرف القراءة والكتابة ؛ لذلك أنزلنا إليكم الكتاب الكامل مخافة أن تصطادوا عذراً وتقولوا : إن أميتنا منعتنا من دراسة الكتاب الذى أنزل على طائفتين من قبلنا من اليهود والنصارى . وكأن الله أنزل ذلك الكتاب قطعاً لاعتذارهم .

﴿ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَـٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَـٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾

قد يحتج المشركون من أن التوراة والإنجيل لو نزلت عليهم لكانوا أهدى من

اليهود والنصارى ، وفى هذا القول مايعنى أن أذهانهم مستعدة لتقبل الإيمان ، وقد قطع الله عليهم كل عذر فجاء لهم بالقرآن ، ويقول الحق :

﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا .. (١٥٧) ﴾ [سورة الأنعام]

و«صدف»من الأفعال التى تُستعمل متعدية وتُستعمل لازمة ، ومعنى«لازمة» أنها تكتفى بالفاعل ولا تتطلب مفعولاً ، فمثلاً إذا قيل لك : جلس فلان . تفهم أن فلاناً قد جلس ويتم لك المعنى ولاتتطلب شيئاً آخر . لكنك إن قيل لك : ضَرَبَ زيد ، فلا بد أنك تنتظر من محدثك أن يبين لك من الذى ضُرِب ، أى أنك جئت بفعل يطلب شيئاً بعد الفاعل ليقع عليه الفعل . وهذا اسمه فعل « متعد »أى يتعدى به الفاعل إلى مفعول به .

و«صدف»فيها الخاصتان . وجاء الحق بهذه الصيغة المحتملة لأن تكون لازمة وأن تكون متعدية ليصيب الأسلوب غرضين ؛ الغرض الأول : أن تكون «صدف»بمعنى انصرف وأعرض فكانت لازمة أى ضل فى ذاته ،والأمر الثانى : أن تكون صدف متعدية فهى تدل على أنه يصرف غيره عن الإيمان ، أى يضل غيره ، ويقع عليه الوزر ؛ لضلال نفسه أولاً ثم عليه وزر من أضل ثانياً ، ولذلك جاء سبحانه باللفظ الذى يصلح للاثنتين«صدف عنها» أى انصرف ، ضلالاً لنفسه ، وصدف غيره أى جعل غيره يصدف ويعرض فأضل غيره ، وبذلك يعذبه الله عذابين ، فيقول سبحانه :

﴿ .. سَنَجْزِى الَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ آيَاتِنَا سُوءَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يَصْدِفُونَ (١٥٧) ﴾

[سورة الأنعام]

فكأن المسألة يرتكبها : الذين صدفوا أنفسهم ، وصرفوها عن الإيمان ، ويصدفون كل من يحاول أن يؤمن . وهؤلاء هم القوم الذين أعرضوا وانصرفوا عن منهج الهدى ، أو تغالوا فى ذلك فصرفوا غيرهم عن منهج الهدى ، ولو أنهم استقرأوا الوجود الذى يعايشونه لوجدوا الموت يختطف كل يوم قوماً على غير طريقة رتيبة ، فلا السن يحكم ويحدد وقت وزمن انقضاء الأجل ، ولا الأسباب تحكمه ،

ولا المرض أو العافية تحكمه ، فالموت أمر شائع في الوجود. ومعنى ذلك أن على كل إنسان أن يترقب نهايته ، فكأنه يتساءل : لماذا إذن يصدفون؟ . وماذا ينتظرون من الكون؟ . أرأوا خلوداً في الكون لموجود معهم؟ .

ويقول سبحانه من بعد ذلك :

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾

فهل ينتظرون من عطاءات الوجود المحيط بهم إلا أن تأتيهم الملائكة التي تقبض الروح؟ والملائكة تأتي هنا مجملة . وفي آيات أخرى يقول :

﴿ الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْقَوُا السَّلَمَ .. (٢٨) ﴾ [سورة النحل]

ولن يتأبى أحد على الملائكة ؛ لذلك يلقون لهم السلم وتنتهي المسألة .

ويتابع سبحانه :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا قُلِ انتَظِرُوا إِنَّا مُنتَظِرُونَ (١٥٨) ﴾
[سورة الأنعام]

ووقف العلماء عند هذا القول الكريم لأنهم أرادوا أن يفسروا الإتيان من الرب على ضوء الأتيان منا ، والأتيان منا يقتضي انخلاعاً من مكان كان الإنسان فيه إلى مكان يكون فيه ، وهذا الأمر لايصلح مع الله . ونقول : أفسرت كل مجيء على

ضوء المجيء بالنسبة لك؟ بالله قل لى : ما رأيك فى قوله تعالى :

﴿ وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ﴾

(من الآية ١٩ سورة ق)

كيف جاءت سكرة الموت وهى المخلوقة لله ؟ إننا لا نعرف كيف يجىء الموت وهو مخلوق ؟ فكيف تريدون أن نعرف كيف يجئ الله ؟ . عليكم أن تفسروا كل شيء بالنسبة لله بما يليق بذات الله فى إطار « ليس كمثله شيء » ولنتأدب ونعط العقول مقدارها من الفهم ، ولنجعل كل شيء منسوبا لله بما يناسب ذات الله ؛ لأن المجيء يختلف بأقدار الجائين ، فمجيء الطفل غير مجيء الشاب ، غير مجيء الرجل العجوز ، غير مجيء الفارس ، فما بالنا بمجيء الله سبحانه ؟!! إياك - إذن - أن تفهم المجيء على ضوء مجيء البشر . وأكررها دائماً : عليك أن تأخذ كل شيء بالنسبة له سبحانه لا بقانونك أنت ، ولكن بقانون الذات الأعلى ، واجعل كل ما يخصه فى إطار « ليس كمثله شيء » ، ولذلك قل : له سمْع ليس كسمعنا ، وبصر ليس كبصرنا ، ويد ليست كأيدينا ، فى إطار « ليس كمثله شيء » . وإياكم أن تسمعوا مناقشة فى قوله : « يأتى ربك » . وقل إن إتيان الله ومجيئه ليس كفعل البشر ، بل سبحانه « ليس كمثله شيء » ﴿ أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك يوم يأتى بعض آيات ربك ﴾ .

و « بعض آيات ربك » ، هى العلامات ، وقد قال صلى الله عليه وسلم : « بَادِرُوا بالأعمال سِتًّا : طلوعَ الشمس من مغربها ، والدُّخان ، ودابَّةَ الأرض ، والدَّجَّالَ ، وخُوَيْصَةَ أحَدِكُمْ وأمْرَ العامَّة »[1] .

و « خُوَيْصَةُ أحدكم » تصغير : خاصة ، والمراد حادثة الموت التى تخص الإنسان ، وصغِّرت لاستصغارها فى جنب سائر العظائم من بعث وحساب وغيرهما وقيل : هى ما يخص الإنسان من الشواغل المقلقة من نفسه وماله وما يهتم به .

و « أمر العامّة » : أى القيامة ؛ لأنها تعم الخلائق ، أو الفتنة التى تعمى

(١) رواه أحمد ومسلم عن أبى هريرة .

وتصم ، أو الأمر الذى يستبد به العوام ويكون من قبلهم دون الخواص .

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

لأن الإيمان لا يكون إلا بأمر غيبى ؛ فكل أمر مشهدى مدرك بالحواس لا يسمى إيماناً ؛ فأنت لا تقول : أنا أؤمن بأنى أقرأ الآن فى كتاب خواطر الشيخ الشعراوى حول آيات القرآن الكريم ؛ لأنك بالفعل تقرأ هذه الخواطر الآن . وأنت لا تقول : أنا أؤمن بأن النور يضىء الحجرة ؛ لأن هذا أمر مشهدى ، وليس أمراً غيبيًّا . والإيمان يكون دائماً بأمر غيبى ، ولكن إذا جاءت الآيات فإننا ننتقل من الإيمان بالأمر الغيبى إلى الإيمان بالأمر الحسى ، وحينئذ لا ينفع الإيمان من الكافر ، ولا تقبل الطاعة من صدقة أو غيرها من أنواع البر والخير بعد أن تبلغ الروح الحلقوم وتقول : لفلان كذا ولفلان كذا ، وقد كان لفلان . هذا لا ينفع ؛ لأن المال لم يعد مَالَك ، بل صار مال الورثة ، كذلك الذى لم يؤمن وبعد ذلك رأى الآيات الستة التى قال الشارع عنها : إنها ستحدث بين يدى الساعة أو قبل مجىء الساعة . وساعة ترى هذه الآيات لن يُقبل منك أن تقول : آمنت ؛ لأن الإيمان إنما يكون بالأمر الغيبى ، وظهور الآيات هو أمر مشهدى فلن يُقبل بعده إعلان الإيمان . والحق هو القائل :

﴿ أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِيٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ﴾

(من الآية ١٥٨ سورة الأنعام)

أى أن الإيمان يجب أن يكون سابقاً لظهور هذه الآيات ، وإلا يكون المانع له من العمل القصور ، كأن يكون الإنسان ـ والعياذ بالله ـ مجنوناً ولم يفق إلا بعد مجىء العلامة ، أو لم يَبْلُغ إلا بعد وجود العلامة فهذا هو من ينفعه الإيمان .

وقد عرض الحق لنا من هذه الصور ما حدث فى التاريخ السابق ، فهو القائل :

﴿ وَجَـٰوَزْنَا بِبَنِى إِسْرَٰءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾

[سورة يونس]

وماذا كان رد الله عليه ؟ لقد قال سبحانه :

﴿ ءَآلْـَٔـٰنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ .. ﴿٩١﴾ ﴾ [سورة يونس]

إذن : إذا بلغت الروح الحلقوم ، وهذه مقدمات الموت فلا ينفع حينئذ إعلانك الإيمان .

ويذيل الحق الآية بقوله :

﴿ .. ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

هم منتظرون الخيبة ونحن منتظرون الفلاح .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾ ﴾

هذه الآية تشرح الآية التى سبقت خواطرنا عنها ، وهى قوله الحق :

﴿ وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [سورة الأنعام]

والذين فرقوا دينهم نسوا أن الدين إنما جاء ليجمع لاليفرق ، والدين جاء ليوحد مصدر الأمر والنهى فى الأفعال الأساسية فلا يحدث بيننا وبين بعضنا أى خلاف ، بل الخلاف يكون فى المباحات فقط ؛ إن فعلتها فأهلاً وسهلاً ، وإن لم تفعلها فأهلاً وسهلاً ، ومالم يرد فيه أفعل ولاتفعل ؛ فهو مباح .

إذن الذين يفرقون فى الدين إنما يناقضون منهج السماء الذى جاء ليجمع الناس على شىء واحد ؛ لتتساند حركات الحياة فى الناس ولاتتعاند ، وإذا كان لك هوى ، وهذا له هوى ، وذلك له هوى فسوف تتعاند الطاقات ، والمطلوب والمفروض أن الطاقات تتساند وتتعاضد .

والشيع هم الجماعة التى تتبع أمراً ، هذا الأمر يجمعهم ولو كان ضلالا .

وهناك تشيع لمعنى نافع وخير ، وهناك تشيع لعكس ذلك ، والتشيع على إطلاقه هو أن تجمع جماعة على أمر ، سواء أكان هذا الأمر خيراً أم شرا .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ .. (١٥٩) ﴾

[سورة الأنعام]

إذن هم بعيدون عن منهجك يامحمد ، ولايصح أن ينسبوا إلى دينك ؛ لأن الإسلام جاء لإثبات القيم للوجود مثل الماء لإثبات حياة الوجود . ونعرف أن الماء لايأخذ لوناً ولاطعماً ولارائحة ، فإن أخذ لوناً أو طعماً أو رائحة فهو يفقد قيمته كماء صاف . وكذلك الإسلام إن أخذ لوناً ، وصار المسلمون طوائف ؛ فهذا أمر يضر الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإسلام لون واحد .

﴿ .. إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ (١٥٩) ﴾ [سورة الأنعام]

إن شاء سبحانه عاجلهم بالهزيمة أو بالعذاب ، وإن شاء آجلهم إلى يوم القيامة .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ ﴾

هناك « حسن » ، و« حسنة » ولا تقل : إن حسنة هي مؤنث حسن ، لأن فيها تاء . كأنها تاء التأنيث ،ولكن اسمها « تاء المبالغة » تأتى على اللفظ الذى للذكر ، مثلما تقول : « فلان علاّمة » ، و« فلان راوية للشعر » وفلان نسّابة . هذه هي تاء المبالغة .

و الحسنة هى الخير الذى يورث ثواباً ، وكلما كان الثواب أخلد وأعمق كانت الحسنة كذلك . وإذا قال الحق سبحانه وتعالى : ﴿ من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ﴾ .

فـ « أمثالها » جمع « مثل » ، والمثل مذكر ، والقاعدة تقول : حين يكون المعدود مذكراً نأتى له بالتاء ، وحين يكون مؤنثاً نحذف التاء لأن أصل الأعداد مبنى على التاء ، لأنك عندما تعد تقول واحد ، اثنان ثلاثة إلى عشرة فأصل الأعداد مبنى على التاء ، وإذا استعملته مع المؤنث تخالف بحذف التاء فيه ، وإن استعملت العدد مع الأصل وهو المذكر ، تستعمله على طبيعته فتقول : « ثلاثة رجال » . وإذا أردت أن تتكلم عن الأنثى ، تقول : « ثلاث نسوة » ، والحق هنا يقول : ﴿ فله عشر أمثالها ﴾ ، و« مثل » - كما قلنا - مذكر . والحق لم يجعل الأصل فى العطاء هو « المثل » ، بل جعل الأصل هو الحسنة :

﴿ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

وهذا هو مطلق الرحمة والفضل . ولذلك ورد الحديث القدسى .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال - فيما يروي عن ربه تبارك وتعالى - « إن ربكم عز وجل رحيم . من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له عشراً إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، ومن هم بسيئة فلم يعملها كتبت له حسنة ، فإن عملها كتبت له واحدة أو يمحوها الله عز وجل ولا يهلك على الله إلا هالك »(١) .

ونعرف أن الحق يجزى الحسنة بعشر أمثالها ويضاعف ذلك إلى سبعمائة ضعف ، لأن كل فعل تلازمه طاقة من الإخلاص فى نفاذه ، فكأن الحق قد وضع نظاماً بأن الحسنة بعشر أمثالها ، ثم بالنية المخلصة تبلغ الأضعاف إلى ما شاء الله . وقد وضع الحق هذا النظام ؛ لأنه جل وعلا يريد للحسنة أن تُفعل ، وينتفع الغير بها ، فإن كان فاعلها حريصاً على الأجر الزائد فهو يقدمها بنية مخلصة ، ويقول الحق لنا :

﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾﴾

(سورة الحديد)

ويقول أيضاً :

﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ﴾

(من الآية ٢٤٥ سورة البقرة)

ويحدد هنا جزاء الحسنة بأن ثوابها عشر أمثالها ، ونية معطى الحسنة هى التى يمكنها أن تضاعفها إلى سبعمائة أو أزيد . والحق سبحانه وتعالى يعطى مثلاً لذلك فى قوله تعالى :

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

---

(١) رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى .

وإذا كانت الأرض وهى مخلوقة لله تعطيها أنت حبة فتعطيك سبعمائة فماذا يعطى خالق الأرض ؟ إن عطاءه غير محدود ولا ينفد ، ولذلك يقول سبحانه :

﴿ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ﴾

(من الآية ٢٦١ سورة البقرة)

ويتابع الحق سبحانه :

﴿ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

(من الآية ١٦٠ سورة الأنعام)

مادام لا يجزى إلا مثلها فهم لا يظلمون أبداً .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ ﴾

و « ديناً قيماً » أى تقوم عليه مسائل الحياة ، وهو قائم بها ، و « قيماً » مأخوذة من « القيمة » أو من « القيام » على الأمر ، وقام على الأمر أى باشره مباشرة من يصلحه ، كذلك جاء الدين ليصلح للناس حركة حياتهم بأن أعطاهم القيم ، وهو قائم عليهم أيضاً : ﴿ ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً ﴾ .

وفى كل أمر مهم له خطره ومنزلته يأتى لنا الحق بلمحة من سيرة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، لأنه صلوات الله وسلامه على نبينا وعليه فيه القدر المشترك الذى يجمع كفار مكة ، وأهل الكتاب الذين يتمحكون فيه . فقالت اليهود : إبراهيم كان يهوديًا ، وقالت النصارى : إن إبراهيم كان نصرانيًا ، وربنا يقول لهم ولنا :

﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا ﴾

(من الآية ٦٧ سورة آل عمران)

واليهودية والنصرانية جاءتا من بعده . أما بالنسبة للجماعة الأخرى ففى بيئتهم ، وكل حركات حياتهم ، وتجارتهم ونفعهم من آثار إبراهيم عليه السلام ما هو ظاهر وواضح . يقول الحق :

﴿ رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾

(من الآية ٣٧ سورة إبراهيم)

فسيدنا إبراهيم هو الذى رفع القواعد من البيت الحرام ، وهو الذى عمل لهم مهابة جعلت تجارتهم تذهب إلى الشمال وإلى الجنوب ولا يتعرض لها أحد ، وجاءت لهم بالرزق الوفير . وحين يقول الحق :

﴿ دِينٗا قِيَمٗا مِّلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴾

(من الآية ١٦١ سورة الأنعام)

المقصود هو الدين الذى تعيشون فى كنف خيرات آثاره ، و « الحنف » هو اعوجاج فى القدم . وبطبيعة الحال لم يكن دين إبراهيم مائلاً عن الحق والصواب بل هو مائل عن الانحراف دائم الاستقامة . ونعرف أن الرسل إنما يجيئون عند طغيان الانحراف ، فإذا جاء إبراهيم مائلاً عن المنحرف ؛ فهو معتدل .

ويقول الحق بعد ذلك :

﴿ قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢ ﴾

و « صلاتى » مقصود بها العبادة والركن الثانى فى الإسلام الذى يتكرر كل يوم خمس مرات ، وهى الركن الذى لا يسقط أبداً ؛ لأن شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ـ كما قلنا سابقاً ـ يكفى أن تقولها مرة فى العمر ، وقد يسقط عنك الصوم إن كنت لا تستطيع ، وقد لا تزكى لأنه ليس لك مال ، وقد لا تستطيع

لحج ، وتبقى الصلاة التى لا تسقط أبداً عن العبد . وهى ـ كما نعلم ـ قد أخذت التكليف حظها من الركنية .

إن كل تكليف من التكاليف جاء بواسطة الوحى إلا الصلاة فإنها جاءت بالمباشرة ، تلقاها رسول الله صلى الله عليه وسلم من ربه دون واسطة . وحين يقول الحق : « إن صلاتى » ، فهو يذكر لنا عمدة الأركان والتى اشتملت على كل الأركان كما أوضحنا سابقاً . حتى إن الإنسان إذا كان راقداً فى مرض ولا يستطيع القيام فعليه أن يحرك رأسه بالصلاة أو يخطر أعمال الصلاة على قلبه . ويقول الحق : ﴿ ونسكى ﴾ . و « النسك » يطلق ويراد به كل عبادة ، والحق يقول :

﴿ لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ ﴾

(من الآية ٦٧ سورة الحج)

« النسك » إذن هو عبادة ويطلق بالأخص على أفعال كثيرة فى الحج ، مثل نسك الطواف ونسك السعى ، ونسك الوقوف بعرفة ، ونسك الرمى ، ونسك الجمار ، وكل هذه اسمها مناسك ، والأصل فيها أنها مأخوذة من مادة « النسيكة » وهى السبيكة من الفضة التى تصهر صهراً يُخرج منها كل المعادن المختلطة بها حتى تصير غاية فى النقاء . فسميت العبادة نسكاً لهذا ، أى يجب أن تصفى العبادة لله كما تصفى سبيكة الفضة من كل المعادن التى تخالطها : ﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ﴾ .

وهنا أمران اختياريان ، وأمران لا اختيار للإنسان فيهما ، الصلاة والمناسك كلاهما داخل فى قانون الاختيار ، لكن المحيا والممات لا يدخل أى منهما فى قانون الاختيار ؛ إنهما فى يد الله ، والصلاة والنسك أيضاً لله ، ولكن باختيارك ، وأنت لا تصلى إلا لأنك آمنت بالأمر بالصلاة ، أو أن الجوارح ما فعلت كذا إلا لله . إذن فأنت لم تفعل شيئاً من عندك أنت ، بل وجهت الطاقات المخلوقة لله لتأدية المنهج الذى أنزله الله . إذن إن أردت نسبة كل فعل فانسبه إلى الله .

ولماذا جاء بالصلاة والنسك وكلاهما أمر اختيارى ؟ ؛ لأنه إن كان فى ظاهر الأمر لكم اختيار ، فكل هذا الاختيار نابع من إيجاد الله لكم مختارين . وهو الذى وضع

المنهج فجعلكم تصلون ، أو : إن صلاتى لله ونسكى لله ، أى أن تخلص فيها ، ولاتشرك فيها ، ولاتصلى مرائياً ، ولاتصنع نسكاً مرائياً ، ولا تذهب إلى الحج من أجل أن يقولوا لك : « الحاج فلان » أبداً ، بل اجعلها كلها لله ؛ لأنك إن جعلتها لغيره فليس لغيره من القدرة على الجزاء مايجازيك الله به ، إن جعلتها لغيره فقد اخترت الخيبة فى الصفقة ؛ لذلك اجعل الصلاة والنسك للذى يعطيك الأجر .

﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) ﴾ [سورة الأنعام]

والحياة هبة الله ، وإياك أن تصرف قدرة الحياة ومظاهر الحياة فى غير مايرضى الله . فينبغى أن يكون حياتك لله لالشهوتك ، ومماتك لله لالورثتك ، وتذكر ذلك جيداً لأن الحق يقول بعد ذلك :

﴿ لَا شَرِيكَ لَهُۥ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾

وهذا القول يدل على أن بعض الخلق قد يجعل لله شريكاً فى العبادة فيجعل صلاته ظاهرية رياء ، ومناسكه ظاهرية رياء ، وحياته يجعلها لغير واهب الحياة . ويعمل حركاته كلها لغير واهب الحياة ، ويجعل مماته للورثة وللذرية ؛ لذلك عليك أن تتذكر أن الله لاشريك له .

﴿ .. وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣) ﴾ [سورة الأنعام]

وهذا أمر من الله لرسوله ، وكل أمر للرسول هو أمر لكل مؤمن برسالته ﷺ ، والأوامر التى صدرت عن الرب هى لصالحك أنت . فسبحانه أهل لأن يُحب ، وكل عبادة له فيها الخير والنفع لنا ، وأنا لاأدعيه لنفسى بل هو عطاء من ربكم وربى الذى أمر . ولذلك فالحق سبحانه وتعالى حينما رأى أن رسوله ﷺ مشغول بأمر أمته أبلغنا :